من ذكريات الصبي

أول حب

للأديب حسين شوق

كان أول حب لي في سنة ١٩١٨ أثناء النفي في اسبانيا .. كنا نقضي صيف ذلك العام بغرناطة في الغابة الجميلة التي تحيط بقصر الحمراء الشاهق، حيث كانت ثريا حظيَّة الملك ابن الأحمر المنعمة المدللة تمرح بين النرجس والياسمين . وكنا نقيم في فندق شيّد في الغابة نفسها حيث يستطيع الزائر أن ينعم بالراحة والسكون مع بقائه بالقرب من ذلك القصر العربي المجيد ، وكانت هذه الغابة التي غرست فوق رابية ، تطل على مدينة غرناطة بمنظرها الرائع وضواحيها الفاتنة . . وكنا في أوائل فصل الصيف ، فلم يحضر إلا القليل من السياح ، فلم يكن بالفندق غير أسرة أحد كبار الضباط الاسبان وأسرتنا ؛ فما لبثت الأسرتان أن تعارفتا بعد زمن قليل . . كان أهلي يقضون أوقات طويلة مع الضابط وزوجه يتحدثون عن جمال الطبيعة في هذا المكان : سكون الغابة ، صفاء المياه التي تترقرق في الجداول الآتية من جبل « الشيرا » الذي يشرف هو كذلك على الحمراء وقد جلل الثلج رأسه صيف شتاء . .

أما أبي فقد وجد في الضابط سميراً أنيساً ، لأن الرجل كان رغم تربيته الحربية واسع الاطلاع على الأدب والتاريخ . . كما كان يشارك والدي في توجعه على تلك المدنية العربية الأندلسية العظيمة التي أضاءت العالم الغربي حقبة من الزمن ، حين كان يتخبط في دياجير الجهل والهمجية ، ثم ما لبثت أن اختفت فجأة في فوضى الوجود . .

وكان هذا الضابط أسمر البشرة إلى حد يلفت النظر ، وقد قال له أبي مرة إنه لابد أن يكون من أصل عربي ، فأمن الضابط على قوله ذاكراً في شيء من الزهو أنه عربي من بني أمية الأمجاد كما تثبت ذلك شجرة نسب أسرته ، إذ كان من النبلاء . .

أما أنا ، وكان عمري إذ ذاك ثلاثة عشر عاماً ، فما كنت أحفل ببني أمية ولا بغيرهم ؛ بل كنتُ أقضي الوقت في الغابة أبحث عن فراشة جميلة أضمها إلى مجموعتي .

كانت تعاونني في مهمتي هذه بنت الضابط الصغرى ، إذ كان له بنتان : إحداها في العاشرة وكانت مع الأسف دميمة ، ومع ذلك كنتُ أصطحبها في جولاتي خلال الغابة لافتقاري إلى رفيق . . أما أختها الكبرى فكانت في مقتبل العمر ، وهي آية في الحسن ، ببضاضتها ولونها الخمري ، وعينيها السوداوين الصغيرتين الحادتين ، ووجهها الذي يبسم دائماً كأنه أيام الربيع ...

وكانت هذه الفتاة الرشيقة التي تُسمى خوانا ، وكان أهلها يدعونها خوانيتا (تصغير خوانا) — تدليلاً ومحبة — تتكرم أحياناً بمصاحبتنا في رحلاتنا . . عندئذ كنتُ أحسّ بسعادة عظيمة تغمر قلبي ووجداني ، لابد أني كنت أحب خوانيتا حباً جماً إذ ذاك ، فقد فقدتْ يوماً شالها الحريري الصغير الذي كانت تلف به عنقها في إحدى هذه الرحلات ، فأخذنا نبحث عنه — نحن الثلاثة — حتى عثرت عليه أنا معلقاً على جذع شجرة ، ولكني بدلاً من أن أرده اليها ألفيت نفسي أقبله ، ثم وضعته خلسة في جيبي لأحتفظ به . كم كان طيباً عبق هذا الشال ! وكيف لا يكون وقد أحاط بجيد محبوبتي خوانيتا ، وتنسم عبق غدائرها الساحرة ؟ وكنت في الليل حينما أرجع الى مخدعي وتتراءى لي صورة خوانيتا فتطرد عني النوم أضمّ الى صدري هذا الشال فيهدّئ وجوده أعصابي ويجلب اليّ النوم والراحة

أردت مرة أن أقدم اليها هدية مدفوعاً في ذلك بحب الصبا الجنوني ، ولكن ما الذي كنت أستطيع أن أقدمه اليها ونفقة جيبي ضئيلة لا تزيد في الشهر على ثلاثين فرنكاً اسبانياً ؟ عندئذ قمت بهذه التضحية : أعطيتها مجموعة الفراش التي عانيت الشاق في جمعها !

أما خوانيتا فلم تكن مع الأسف تشاركني هذا الحب ... كم كنت أحمق حين ظننت أن فتاة كخوانيتا في العشرين من عمرها تبادل صبياً في مثل سني الحب ؟ على أن خوانيتا كانت تجد تسلية كبيرة في التظاهر بحبي ، فتلعب معي أدواراً مؤلمة . . فمن ذلك أنها كانت تحتفظ بيدي في يدها — أثناء الرحلات — فكنت اذا ماعدت الى الفندق لا أغسل تلك اليد طول النهار ، حتى أحتفظ برائحة خوانيتا فيها ، كما كنت أشمها وأقبلها خلسة من وقت الى آخر . . .

وكانت خوانيتا ترسل الى أحياناً بعض تلك النظرات التي لا يقوى على مواجهتها قديسو اسبانيا جميعاً ! وصار أهلها الذين